تصحيح المعتقد ٢٤

الدليلُ المختارُ على أنَّ الاعتبارَ في الحكم على الرجالِ بالعاقبةِ والمآلِ لا بما جَرَى في بدايةِ الحال

صَنَّفَهُ
فضيلة الشيخ الدكتور
أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عِيدُ بْنُ أَبِي السُّعُودِ الكَيَّال

مكتبة الكيال للأبحاث العلمية الشرعية
٠١٠٠٣٩١٥٢٧٠
٠١١٤٥٨٠٩٤٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٦٠٨٠م

الناشر

ش ٨- الحدود - الهجانة - م. نصر -
أول طريق السويس الصحراوي - القاهرة
٠١١٤ /٥٨٠٩٤٤٧ - ٠١٠٠ /٣٩١٥٢٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد للَّه ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلّا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فقد روى البخاري في صحيحه (٥٢٣١) ومسلم (٢٦٧١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إن من ورائكم أيَّامًا ينزل فيه الجهل [وفي رواية: **يُبَثُّ فيها الجهل**] **ويرفع فيها العلم»** الحديث.

وروى البخاري في صحيحه (٧٣٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«إنّ اللَّه لا ينزع العلم بعد أَنْ أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُستفْتون فيُفتون برأيهم فيُضلون ويَضِلُّون».

وإن المتأمل في الساحة الدعوية؛ ليرى أثر هذين الحديثين رأي العين مُتَشَخِّصًا في الكثير من الرجال الذين يضلون الأمة بفتاويهم وآرائهم الفاسدة الباطلة التي تخالف الكتاب والسنة والإجماع، ينقضوا بها عرى الإسلام عروة عروة، وتجدهما في الكثير من الشباب المتعالمين الذين يتكلمون في دين اللَّه بدون علم؛ قد بُثَّ فيهم الجهل بثًّا شديدًا؛ حتى نضح على أقوالهم وأفعالهم بدين تديَّنوا به، وبمذاهب تمذهبوا بها ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وليس عليها أَثَارَةٌ مِنْ علم، بل يجد المرءُ منَّا صبيانًا وغلمانًا قد نبتت لهم لِحًى؛ يتكلمون بها في دين اللَّه، وما

حصَّلوا من العلم ما يؤهّلهم لإحسان الوضوء والصلاة، فضلًا عن أن يحققوا مسألة من مسائل الشريعة، وليس في جعبتهم إلا ظاهر الهدي النبوي من اللِّحى والقميص القصير، ضابط التكلم عندهم في دين اللَّه: الإلمام بتقنية وسائل الإنترنت، وعدد شعيرات اللحية وكثافتها!!

- **سبب تصنيف هذا الكتاب:**

ولقد كثر اللَّغط والكلام بين هؤلاء الصبيان ذوي اللحى في مسألة عجيبة، لولا أنها وُجِدت وانتشرت وذاعت حتى ترسخ أثرها في قلوب عامتهم، حتى طلب منّي بعض طلبة العلم الكتابة فيها، لولا ذلك ما ألقيت لها بالًا، ولا خططت فيه حرفًا؛ إذْ لا يقول بهذا الكلام إلَّا من أكله الجهل أكلًا.

غير أن ضرورة البيان؛ والحاجة إلى إزالة اللَّبْس والجهالات؛ وأمانة التبليغ؛ تُلْزِمُ في مثل هذه الحالات بتجْلية ما قد خفي على الكثير من طلبة العلم، مخَافة أن يتحول الباطل حقًّا والحق باطلًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والهدى ضلالًا والضلال هدى، وقد يتوجّب الاستدلال على أنَّ الشمس ساطعة في وقت الظهيرة، ليس دونها سحاب.

فقد روى الإمام محمد بن نصر المروزي في «السنة» (١٠٠) عن ابن عباس ﷺ قال:

«ما من عام إلا يحيا فيه بدعة، ويُمات فيه سُنة، حتى تحيا البدع وتموت السنن».

وقد روى هذا الأثر أيضًا ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص: ٣٨-٣٩)، وابن بطة العكبري في «الإبانة الكبرى» (٢٢٥).

وهذا الأثر وإن كان موقوفًا على ابن عباس، غير أن له حكم الرفع إلى رسول اللَّه ﷺ؛ إذْ لا مسرح فيه للاجتهاد؛ لأنه إخبار عن غيب لا يُقال من قِبَل الرأي.

أما هذه المسألة العجيبة: فهي ما يتناوله بعض الصبيان ذوي اللّحى ممن لا يدرون ما يخرج من رؤوسهم، من أنّ ما كان من الرجل من أهل السنة قبل هدايته إلى الحق وتبصّره به، مما صدر منه من الزلل أو الانحراف، بكونه كان مع أهل البدع، أو قال بقولهم في بعض مسائل الشريعة، أو انتصر لهم، ثم تاب اللَّه عليه

فتاب ورجع إلى الحق وأصبح سلفيًّا سُنِّيًّا حقًّا، أنَّ ما كان منه في حال زَلَلِهِ، يُعتبر مذمة وقبحًا وعارًا وشنارًا ملازمًا له، ملاحقًا إيَّاه، قادحًا في معتقده وسلفيَّته وسُنِّيّته إلى أن يتوفّاه اللَّه، ولو رسخت به قدمُهُ حتى صار من رؤوس أهل السنة يذب عنها، ويفضح أهل البدع الذين كان منهم، بعد أن تبرّأ منهم عشرات المرات وأعلن البغض لهم!!!، وأن الذي كان من بداية التزامه على الجادة أفضل منه وأطهر؛ وأن العبرة إنما هي ببداية الحال لا بنهايته!!

غير أن الحكيم الخبير العليم يفضح السفهاء على ألسنتهم، ويكشف جهلهم بهم، ويبرهن بأدلتهم التي يستدلون بها على ما ذهبوا إليه من الهوس، على ضلالهم وزيغهم وانحرافهم؛ وذلك لأن مآل قولهم هذا يؤدي بهم إلى الكفر باللَّه العظيم؛ على ما سيظهر بإذن اللَّه من مسائل هذا البحث.

ولكن لما قدّر اللَّه لهذا العبث والهوس والجنون، أن ينطق به بعض السفهاء، وينتشر بينهم في لباس الحق، في مناخ نُزِع منه العلم وبُثّ فيه الجهل، وعلا وظهر على منارات الباطل، فحُقّ لمن مَنَّ اللَّه عليه بملكة التصنيف أن يُصنّف مُصنَّفًا يُجلِّي فيه الأمر ويفرق فيه بين الحق والباطل، ويُكْبَتُ به الأبعدُ السفيهُ.

- **خطة البحث:**

ولقد أقمت الكلام في هذا المُصّنَّف على فصلين تحتهما جملة مسائل:

الفصل الأول: تحرير القول في بيان ما يُعتبر في الحكم على الرجال، وتحته عشر فوائد.

الفصل الثاني: طلبة التجْهيل بين الجهل المركب والبسيط.

وقد فصَّلت جملة النقاط المتفرّعة من الفصلين في فهرس الكتاب فراجعها إن كنت متعجلًا لمضمون الكتاب، وإلا فانتظر حتى تأتيك في حينها، وهو أحبّه إليّ؛ ولذلك اخترته لك.

واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وصلى اللَّه على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

الفصل الأول
تحرير القول في بيان ما يُعْتَبَرُ في الحكم على الرجال

● **تناول الموضوع من خلال كلام جليل لشيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ:

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية الإمام الجهبذ بحر العلوم عن يونس عليه السلام ذي النون وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وما كان منه عليه السلام ودعاؤه ربّه بالاستغفار، فأجاب شيخ الإسلام إجابة طويلة مستفيضة مليئة بالعلم والنور **في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٣٧) إلى (١٠/ ٣٣٦) في مائة صفحة كاملة، فكان من أطايب كلامه:**

● **بداية الكلام وما كان من يونس بن متى** عليه السلام[(١)]:

«وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرّئ نفسه عن هذا الوصف، لاسيّما في مقام مناجاته لربه.

وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متىّ**»[(٢)].

وقال: «**من قال: أنا خير من يونس بن متىّ فقد كذب**»[(٣)].

فمن ظنَّ أنه خير من يونس بن متّى بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب؛ ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام، بل يقولون: كما قال أبوهم آدم وخاتمهم ﷺ.

---

(١) كل العناوين التي على كلام شيخ الإسلام هي من عندي.
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٣٩٥)، ومسلم (١٦٦/ ٢٣٧٦).
(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤٦٠٤).

فقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار، فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة... واللَّه تعالى لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبيٍّ من الأنبياء إلّا مقرونًا بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦]، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى عن داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، وقوله تعالى عن سليمان: ﴿ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥][1].

• [تبرئة يوسف عليه السلام ممّا نسب إليه:]

وأما يوسف الصديق، فلم يذكر اللَّه عنه ذنبًا، فلهذا لم يذكر اللَّه عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ [يوسف: ٢٤]:

فالهَمُّ اسم جنس تحته نوعان؛ كما قال الإمام أحمد: الهم همّان: همّ خطرات، وهمّ إصرار؛ وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها للَّه كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة**[2] وإن

---

(١) **قلت**: ويكفي الاستدلال في هذا السياق بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] فظاهر الآيتين أنه عليه السلام عصى ثم تاب اللَّه عليه، وهو من أقوى الأدلة في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٩١)، ومسلم (١٣/ ٢٠٧).

تركها من غير أن يتركها للَّه لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة، ويوسف ﷺ همّ همًّا تركه لله، ولذلك صرف اللَّه عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهمّ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله. فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأما ما ينقل: من أنه حلّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًّا على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر اللَّه به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبيِّنا ﷺ حرفًا واحدًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٥٣]، فمن كلام امرأة العزيز؛ كما يدل القرآن على ذلك دلالة بيّنة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن؛ حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣]، فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذْ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته - كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عنّي، وإن كنت في حال شهوده راودته- فحينئذ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقد قال كثير من المفسرين: إنّ هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقيضه.

● **والمقصود هنا: أن ما تضمنته «قصة ذي النون» مما يلام عليه كله مغفور،** بَدَّلَهُ اللَّهُ به حسنات؛ ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠]، وهذا بخلاف حال التقام الحوت، فإنه قال: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٢]، فأخبر أنه في تلك الحال مُليم، و«المُليم» الذي فعل ما يُلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧][1] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان؛ **والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها.**

واللَّه تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم علَّمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال.

● **[بيان غلط من فضل الملائكة على الأنبياء والصالحين لاعتبارهم بداية الصالحين:]**

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]؛ فإذا اعتبرت تلك الحال، ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر

---

(١) ولما قتل موسى ﷺ الرجل الذي وكزه قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦] ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب؟! ولو اعتبر ذلك، لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم حين نُفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر؛ فعُلم أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال.

● **[بيان خطأ من ظن أنَّ من وُلد على الإسلام فلم يكفر أفضل ممن كان كافرًا ثم أسلم:]**

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرا فأسلم ليس بصواب، بل الاعتبار بالعاقبة، وأيّهما كان أتقى للَّه في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم، أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا باللَّه ورسوله بعد كفرهم، هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم، بل من عرف الشرّ وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه، فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له، أكمل ممن لم يعرف الخير والشّر ويذقهما كما ذاقهما، بل من لم يعرف إلّا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شرّ، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا يُنكره كما أنكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»[1].

وهو كما قال عمر؛ فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل اللَّه، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣١٣٩)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٤٣) بلفظ: «قد علمت وربّ الكعبة متى تهلك العرب؟!» فقام إليه رجل من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج الجاهلية، ولم يصحب الرسول».

ولهذا كان الصحابة ﷺ أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم؛ لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبّتهم للخير وبغضهم للشر؛ لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي؛ ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف، أحرص على الغنى والصحة والأمن ممّن لم يذق ذلك؛ ولهذا يقال: «والضدّ يُظهر حسنه الضد»، ويقال: «وبضدها تتبين الأشياء».

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «لست بخبٍّ ولا يخدعني الخبُّ».

فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقًا، فإن هذا ليس بمطرد، بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أطباء الأديان؛ فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويُفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشرّ ما ذاقه الناس[1].

ولكن المراد: أن مِنَ الناس مَنْ يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشركًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا، وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح اللَّه صدره للإسلام وعرفه محاسن الإسلام؛ فإنه قد يكون أرغب فيه وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا أو مقلد في مدح هذا وذم هذا.

ومثال ذلك: من ذاق طعم الجوع، ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده، فإن محبة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع، ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يُبتل بذلك ولم يعرف حقيقته.

---

(١) **قلت**: وإنما أصل معرفة الأنبياء بالوحي؛ لأنهم لا ينطقون عن الهوى بل هم ينطقون بالوحي، وهذا منتفٍ في حق الناس، فافترقوا.

● **[وكذلك من دخل مع أهل البدع فحاله أفضل ممن لم يدخل:]**

وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بيّن اللَّه له الحق وتاب عليه توبة نصوحًا، ورزقه الجهاد في سبيل اللَّه، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم؛ وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حماد الخزاعي -وكان شديدًا على الجهمية-: أنا شديد عليهم؛ لأني كنت منهم.

● **[ذكر الأمثلة على ما يُبيّن ذلك من أحوال الصحابة ﷺ:]**

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم، ثم تاب اللَّه عليهم، فهاجروا إلى اللَّه ورسوله؛ وجاهدوا وصبروا(١).

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ﷺ من أشدّ الناس على الإسلام، فلما أسلما تقدّما على من سبقهما إلى الإسلام، وكان بعض من سبقهما دونهما في الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر للَّه ورسوله، وكان عمر لكونه أكمل إيمانًا وإخلاصًا وصدقًا ومعرفةً وفراسةً ونورًا، أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دين اللَّه، مقدّمًا على سائر المسلمين غير أبي بكر رضي اللَّه عنهم أجمعين.

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية...

فإن دين محمد ﷺ في التوبة جاء بما لم يجئ به شرع من قبله؛ ولهذا قال: «**أنا نبي الرحمة؛ وأنا نبي التوبة**(٢)»، وقد رُفع به من الآصار والأغلال ما كان على من

---

(١) رواه البزار في مسنده (٢٢٠٤)، والطبري في جامعه (٢١٨٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٦٨): «روى البخاري بعضه، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة». اهـ، والحديث في المجمع رقم (١٠٩٤٨) عند سورة النساء عن ابن عباس.
(٢) رواه مسلم (١٢٦/ ٢٣٥٥).

قبلنا، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] . . . وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فإذا كان اللَّه يبدل سيئاتهم حسنات، فالحسنات توجب مودة اللَّه لهم، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصًّا بمن كان كافرًا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، قال أبو العالية: سألت أصحاب رسول اللَّه ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى اللَّه فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. . .

ومن علم أن ما أتاه ذنب ثم تاب، فلا بد أن يبدّل وصفه المذموم بالمحمود، فإذا كان يُبغض الحق فلا بد أن يحبّه، وإذا كان يحب الباطل فلا بد أن يبغضه، فما يأتي به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به، ومن بغض الباطل واجتنابه، هو من الأمور التي يحبها اللَّه تعالى ويرضاها، ومحبة اللَّه كذلك بحسب ما يأتي به العبد من محابّه، فكل من كان أعظم فعلًا لمحبوب الحق، كان الحق أعظم محبة له، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل وقوة حبّ ما انتقل إليه من حب الحق، فوجب زيادة محبة الحق له ومودّته إيّاه، بل يبدل اللَّه سيئاته حسنات؛ لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل اللَّه سيئاته حسنات، فإن الجزاء من جنس العمل، وحينئذ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم، وإذا كان فعله لما يودّه اللَّه منه أعظم من فعله له قبل التوبة.

- **[بيان خطأ قول الروافض: إن اللَّه لا يبعث نبيًّا إلا من كان معصومًا قبل النبوة:]**[1]

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن اللَّه لا يبعث نبيًّا إلا من كان معصومًا قبل

(١) كما ذكرت في بداية كلام شيخ الإسلام أن كل ما عنونت له من العناوين فإنه من عندي لبيان المراد من كل فقرة بخصوصيّتها، مما يساعد على حسن الفهم.

النبوة، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبيًّا إلا من كان مؤمنًا قبل النبوة، فإن هؤلاء توهّموا أن الذنوب تكون نقصًا وإن تاب التائب منها وهذا منشأ غلطهم.

فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصًا فهو غالط غلطًا عظيمًا، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلًا؛ لكن إنْ قدّم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء -صلوات اللَّه عليهم وسلامه- كانوا لا يؤخّرون التوبة؛ بل يسارعون إليها ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرّون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك، ومن أخَّر ذلك زمنًا قليلًا كفّر اللَّهُ ذلك بما يبتليه به، كما فعل بذي النون ﷺ، هذا على المشهور أنّ إلقاءه كان بعد النبوة.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة.

- **[ذكر الأدلة: على أنّ اللَّه قد بعث أنبياء كانوا قبل البعثة كُفَّارًا:]**

وقد أخبر اللَّه عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم اللَّه تعالى، وقد قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام، ثم أرسله اللَّه تعالى إلى قوم لوط، وقد قال تعالى في قصة شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة

والاستغفار، ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

* وقد أخبر اللَّه سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ وآخر ما نزل عليه -أو: من آخر ما نزل عليه- قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها:

«أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن»[(١)].

وقد أنزل اللَّه عليه قبل ذلك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

«**يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن الأغر المزني عن النبي ﷺ أنه قال:

«**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة**»[(٣)].

وفي السنن عن ابن عمر أنه قال:

«كنّا نعد لرسول اللَّه ﷺ في المجلس الواحد يقول: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٩٦٨)، ومسلم (٢١٧/ ٤٨٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٠٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤١/ ٢٧٠٢).

(٤) رواه الترمذي في سننه (٣٤٣٤) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأبو داود في سننه (١٥١٦)، وابن ماجه في سننه (٣٨١٤).

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

«**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منّي، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير**»(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

يا رسول اللَّه أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد**»(٢).

وفي صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع(٣).

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح:

«**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»(٤).

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده:

«**اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، علانيته وسرّه، أوله وآخره**»(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٩٨)، ومسلم (٧٠/ ٢٧١٩).

(٢) البخاري (٧٤٤)، ومسلم (١٤٧/ ٥٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٠٤/ ٤٧٦) باب ما يقول إذا رفع رأسه من السجود وفيه: «. . . **اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الوسخ**».

(٤) رواه مسلم (٢٠١/ ٧٧١).

(٥) رواه مسلم (٢١٦/ ٤٨٣).

وفي السنن عن علي: أن النبي ﷺ أتي بدابة ليركبها وأنه حمد اللَّه وقال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، ثم كبّره وحمده ثم قال: «**سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» ثم ضحك! وقال: «**إن الربَّ يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا**»(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

وثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة: «**أن المسيح يقول: اذهبوا إلى محمد عبد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(٢).

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(٣).

- **[المنازعون يتأوّلون الأدلة المذكورة تأويل الجهمية:]**

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة، والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة.

لكنْ المنازعون يتأوّلون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب.

- **[بيان فساد هذا التأويل:]**

وتأويلاتهم تبيّن لمن تدبّرها أنها فاسدة؛ من باب تحريف الكلم عن مواضعه، كتأويلهم قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، المتقدم ذنب آدم، والمتأخر ذنب أمته، وهذا معلوم البطلان، ويدل على ذلك وجوه:

أحدها: أن آدم قد تاب اللَّه عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلًا عن عام الحديبية

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٢٦٠٢)، والترمذي في سننه (٣٤٤٦) وقال: «حسن صحيح».
(٢) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣/ ٣٢٢).
(٣) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٧٠/ ٢٨١٩)، (٨١/ ٢٨٢٠).

الذي أنزل اللَّه فيه هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والثاني: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبيّ أيضًا، ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

الوجه الثالث: أن اللَّه لا يجعل الذنب ذنبًا لمن لم يفعله، فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١٥]، فمن الممتنع أن يُضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ [النساء: ٨٤]، ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال: إن قوله ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] المراد: ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم، وقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا وإمامهم إذا اجتمعوا**»[1]؛ وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوبًا له. فإن قال: إن اللَّه لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل: وهو أيضًا لم يغفر ذنوب جميع أمته.

الوجه الرابع: أنه قد ميّز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له؟!

الوجه الخامس: أنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة: يا رسول اللَّه هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤][2]، فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا

---

(١) رواه مسلم (٣/ ٢٢٧٨).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١٧٦٠)، والترمذي في سننه (٣٢٦٣) وقال: «حسن صحيح»، والبخاري في صحيحه (٤١٧٢).

أن قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مختصٌّ به دون أمته.

الوجه السادس: أن اللَّه لم يغفر ذنوب جميع أمته، بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل، وأخبر به الصادق المصدوق، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا اللَّه، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل، فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب». اهـ

- **بيان الكلية المأخوذة من حديث: «كل بني آدم خطَّاء»:**

قلت: ويؤكد ما رجّحه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة المعتبرة؛ هذه الكلية التي نطق بها رسول اللَّه ﷺ والتي لا يخرج منها أحد من بني آدم حتى الأنبياء والمرسلين، وهو ما رواه أحمد في المسند (١٢٩٨٣) والترمذي في سننه (٢٤٩٩) وصححه، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه، من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»، وأخرجه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٢٩٢) وصححه، وليَّنَه الذهبي.

قال المناوي في فيض القدير (٥/ ٢٦):

«لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم وقال ابن مسعدة صالح الحديث، وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة». اهـ

- **الفوائد المستنبطة ممّا أصله شيخ الإسلام بالكتاب والسنة والإجماع:**

إن المتأمل في كلام العلامة الجهبذ أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله، ليعلم أنه قد حقق المسألة تحقيقًا قويًّا استدل فيها بالأدلة المعتبرة الصحيحة الصريحة، فأتى كلامه غاية في التوفيق والسداد، وهذا حال كل من تجرّد للدليل يسير معه حيث سار به وعلى ضوئه يعتقد، ولا سبيل لصلاح الاعتقاد إلا هذا، وهو أن يتقدم الاستدلال على الاعتقاد، ثم لا تُلْوَى أعناق النصوص لتخضع لمذهب ما قد اتخذه أصحابه وقالوا به وتعصبوا له؛ على وفق الهوى لا

على وفق الديانة ومنهج الاستدلال الصحيح؛ وذلك لأن تنزيل الأقوال على الأدلة المعتبرة تُلزم المُنْصِف القول بها، ولو استغربها الناس؛ لعدم تحقيق المسألة من قبل، أو لقلة الإلمام بأدلة الأحكام لمسائل الشريعة، أو للجهل بمنهج الاستنباط الصحيح، أما هذه الفوائد فهي كالتالي:

● **الفائدة الأولى: مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة أمرٌ مختلفٌ فيه:**

واعلم أن الأصل الذي أقام عليه شيخ الإسلام كلامه هنا هو: مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة؛ **حيث قال في «مجموع الفتاوى»** (١٠/ ٢٨٩-٢٩٥):

«والكلام في هذا المقام مبنيّ على أصل، وهو: أن الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم- معصومون فيما يخبرون به عن اللَّه سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه، كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء لله... وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة، ... وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟

ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟

والقول الذي عليه جمهور الناس، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف: إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقًا، والردّ على من يقول: إنه يجوز إقرارهم عليها، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت، إنما تدل على هذا القول.

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسّي بهم مشروع، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا، ومعلوم أن التأسّي بهم إنما هو مشروع فيما أُقرّوا عليه دون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه، كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأمّا ما نُسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورًا به ولا منهيًّا عنه، فضلًا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

● **[الفائدة الثانية: متى تكون الذنوب منافية للكمال؟]**

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها اللَّه يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة: «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلًا**»[1]... إلخ.

وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]؛ فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب اللَّه عليهم.

وفي الكتاب والسنة الصحيحة، والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨)، ومسلم (١/ ٢٦٧٥).

القول ما يتعذر إحصاؤه.

والرادّون لذلك تأوّلوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد، وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يُعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم.

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع، وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها؛ إذ كانوا لا يُقرّون بموجب ما بلغته الأنبياء، وإنما يقرّون بلفظ حرفوا معناه، أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني، والعصمة التي كانوا ادّعوها، لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها، ولا حاجة بهم إليها عندهم، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أُمروا بالإيمان به، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من اللَّه، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]». اهـ

- **الفائدة الثالثة: بيان وجه الدلالة التي استدل بها ابن تيمية على أن اللَّه بعث بعض الأنبياء كانوا قبل البعثة كفارًا:**

قلت: برهن شيخ الإسلام هنا على ما ترجّح عنده والذي هو قول جمهور الناس من أهل العلم: أن العصمة للأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة إنما هي من الإقرار على الذنوب مطلقًا، ثم بيّن أن العصمة من الكفر غير ثابتة بدليل؛ وذلك قبل البعثة، ثم بيّن شيخ الإسلام الأدلة على ذلك فيما ذكرته من قبل، حيث ذكر قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ووجه الدلالة من الآية بمفهوم المخالفة الذي هو دليل الخطاب، أن لوطًا عليه السلام لم يكن مؤمنا قبل ذلك، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ووجه الدلالة من الآية في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فإنما يكون العود إلى أمر كان من قبل، أي أن شعيبًا عليه السلام والذين آمنوا معه كانوا على ملة الكفر، ويبرهن ذلك قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] فبيّن ظاهر الآية بلفظ الجمع أن طائفة وجماعة من الرسل كانوا على ملة قومهم من الكفر ثم اصطفاهم اللَّه، وهذا حال الصحابة الكرام فليس ذلك بقبيح كما قال شيخ الإسلام.

ولأن الألفاظ صريحة في ذلك وصرف اللفظ عن ظاهره بدون دليل لا يجوز؛ وقد اتهم شيخ الإسلام من تأوّل هذه النصوص على غير ظاهرها أنه سلك مسلك الجهمية والباطنية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر والمعاد وأنها كذلك من جنس تأويلات القرامطة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

واستدل أيضًا بصنيع إخوة يوسف بما قاموا به من الكذب والمكر والخداع مع يوسف وإبعاده عن أبيه يعقوب عليه السلام، وكان هذا قبل أن يوحى إليهم، ولذلك أكثر شيخ الإسلام في النقل الأول من آيات وأحاديث التوبة، وأنها تمحو ما قبلها، بل تحوّل السّيّئات إلى حسنات.

وأكد ابن تيمية ذلك، وذكر أن غيره هو منهج الروافض حيث قال، كما مرّ من **«مجموع الفتاوى»** (١٠/ ٣٠٩):

«وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن اللَّه لا يبعث نبيًّا إلا من كان معصومًا قبل النبوة، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبيًّا إلا من كان مؤمنًا قبل النبوة، فإن هؤلاء توهّموا أن الذنوب تكون نقصًا وإن تاب التائب منها وهذا منشأ غلطهم.

فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصًا فهو غالط غلطًا عظيمًا، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلًا؛ لكن إنْ قدّم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء -صلوات اللَّه عليهم وسلامه- كانوا لا يؤخّرون التوبة؛ بل يسارعون إليها ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرّون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك، ومن أخَّر ذلك زمنًا قليلًا كفّر اللَّهُ ذلك بما يبتليه به، كما فعل بذي النون ﷺ، هذا على المشهور أنّ إلقاءه كان بعد النبوة.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة». اهـ

قلت: يؤكد ما قرره ابن تيمية أن ما نُقل من الإجماع في عصمة الأنبياء من الكفر والكبائر إنما هو بعد النبوة: نقل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٧١)، والنووي في «شرح مسلم» (٢/ ١٥٠) عن القاضي عياض قال: «لا خلاف في أنَّ الكفر ليس بجائز على الأنبياء بعد النبوة، وهم معصومون منه». اهـ

وكذلك نقل القاضي عياض الإجماع، كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٦)، و«شرح مسلم» (٢/ ١٥٠-١٥١) على عصمة الأنبياء من المعاصي فقال:

«إن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته، وتسقط مروءته». اهـ

وكذلك نقل عياض كما في «الفتح» (٣/ ٧٨١) إجماعًا آخر فقال:

«اتفقوا على أن ما كان طريقه الإبلاغ في القول، فإن الأنبياء معصومون على كل حال». اهـ

ونقل النووي في «شرح مسلم» (٨/ ٤٨٠) إجماعًا آخر فقال:

«ظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع». اهـ

[بواسطة: «موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي» (٣/ ١١٥٠-١١٥٣) مادة: «نبوّة».]

قلت: هذه جملة الإجماعات فيما يتعلق بالأنبياء في هذه المسألة، وكلها بعد النبوة والبعثة لا قبلها، فثبت عدم وجود إجماع على العصمة قبل البعثة، وإذا وُجد الخلاف، فالأمر مرجعه حينئذ إلى تحقيق القول على وفق ظواهر الأدلة التي لم يصرفها صارف عن ظاهرها، واللَّه أعلم.

● **حال المهدي المنتظر وقد أصلحه اللَّه في ليلة:**

قلت: كذلك، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (٦٤٥) بسند صححه الشيخ أحمد شاكر، وابن ماجه في سننه (٤٠٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤١٥٩)، والصحيحة (٢٣٧١)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩٢٤٣) ورمز لحسنه، من حديث علي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«المهديُّ منَّا أهل البيت، يُصلحه اللَّه في ليلة».

قال السندي في شرحه على سنن ابن ماجه (٤/ ٤١٣):

«قوله: «**يصلحه اللَّه في ليلة**» قال ابن كثير: أي يتوب عليه ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك». اهـ

قلت: وهو الرجل الذي يملأ اللَّه به الأرض عدلًا بعد أن مُلئت جورًا.

فقد روى أبو داود في سننه (٤٢٧٦) والترمذي في سننه (٢٢٣٠، ٢٢٣١) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم في المستدرك (٨٣٦٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**لا تذهب الأيام والليالي** [وفي رواية] **لا تذهب الدنيا، حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جَوْرًا وظلمًا**».

ولذلك ذكر ابن تيمية عمر بن الخطاب ﷺ وخالد بن الوليد ﷺ، حيث كانا من أشدّ الناس على الإسلام حال كفرهم، ثم أصلحهما اللَّه وتاب عليهما فخدما الإسلام خدمة قَلَّ أن توجد في صحابي آخر على قدر ما قاما به.

ثم أنزل شيخ الإسلام هذا الكلام على ما هو دون الكفر فقال كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠٣):

«وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بيّن اللَّه له الحق وتاب عليه توبة نصوحًا، ورزقه الجهاد في سبيل اللَّه، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم؛ وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حماد الخزاعي -وكان شديدًا على الجهمية-: أنا شديد عليهم؛ لأني كنت منهم.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم، ثم تاب اللَّه عليهم، فهاجروا إلى اللَّه ورسوله؛ وجاهدوا وصبروا». اهـ

- **الفائدة الرابعة: إذا كان أمر الكفر أعظم من البدعة فماذا بعد؟!**

قلت: وهذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فليست البدعة أعلى درجة في العصيان من الكفر، بل الكفر أعلى، فإن وجدت بدعة مكفرة فقد جمعت إلى كونها بدعة الكفر.

فيكون معنى الاستدلال في هذا السياق: أنه إن كان أمر الكفر أعظم بلا خلاف، ولا يجوز بعد التوبة منه لومُ من حسنت توبته وصلح إسلامه، فمن باب أوْلى لا يجوز ذلك لمن كان من أهل البدع أو معهم ثم تاب اللَّه عليهم.

- **الفائدة الخامسة: حال الإمام أبي الحسن الأشعري ونعيم بن حماد شيخ البخاري:**

بل قد يكون ذلك خيرًا على الإسلام، كما كان أبو الحسن الأشعري على منهج الاعتزال أربعين سنة يُنَظِّرُ لهم ويكتُبُ ويذبُّ عن مذهبهم، ثم تاب اللَّه عليه توبة نصوحًا فكان إمامًا لأهل السنة والجماعة يُنظِّرُ، ويدافع عن السنة، ويفضح المعتزلة وأهل الأهواء ويبين ضلالهم الذي ألمَّ به ففهمه وأحسن الردّ عليه، وكُتبه تعتبر مرجعًا لأهل السنة والجماعة، كما فعل نعيم بن حماد الخزاعي، وقد مرّ الكلام عليه، من أنه كان من الجهمية، ثم صار شديدًا عليهم بعد توبته.

- **حال الإمام أبي علي الفضيل بن عياض: كان سارقًا قاطع طريق، ثم أصبح إمامًا في الدين:**

ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٣) في ترجمة الفضيل فقال:

«الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام أبو علي، . . . عن الفضل بن موسى قال: كان الفضيل شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدار إليها؛ إذْ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني، وما أرى اللَّه ساقني إليهم إلَّا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليه، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام». اهـ

- **حال الإمام سفيان الثوري:**

وهذا الإمام سفيان الثوري، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٦٦-٢٠٣/ ت: ١٠٨٣):

«هو شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد اللَّه الثوري الكوفي المجتهد . . . وقال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث . . .

وروى المرّوزي: عن أحمد بن حنبل قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي . . .

قلت: قد كان سفيان رأسًا في الزهد والتألّه والخوف، رأسًا في الحفظ، رأسًا في معرفة الآثار، رأسًا في الفقه، لا يخاف في اللَّه لومة لائم، من أئمة الدين، واغْتُفِرَ له غيرُ مسألة اجتهد فيها، وفيه تشيّعٌ يسير، كان يُثلّث بعليٍّ، وهو على مذهب بلده أيضًا في النبيذ، ويقال: رجع عن كل ذلك». اهـ

وروى اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤٢) عن الفلكيّ قال:

«كان عمار بن رزيق، وسلمان بن قرم الضبيّ، وجعفر بن زياد الأحمر، وسفيان الثوري -أربعتهم- يطلبون الحديث، وكانوا يتشيعون، فخرج سفيان إلى البصرة فلقي أيوب وابن عون فترك التشيّع».

وروى اللالكائيّ أيضًا (٤٣) عن عبد الرحمن بن مهدي قال:

«الناس على وجوه: فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث، ومنهم من هو إمام في الحديث، فأما من هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري».

قلت: والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفينا ما كان من بعض الصحابة ﷺ ففيه الكفاية والغُنْيَةُ.

- **الفائدة السادسة:**

الضابط المعتبر في الحكم على الرجال بكمال العاقبة والمآل التي صاروا إليها وأصبحوا عليها، لا بما جرى لهم في بداية الحال من زلل أو حتى انحراف؛ لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وتحوّل السيئات حسنات، فمن قال بعكس ذلك فلازم قوله الكفر باللَّه العظيم.

وبيان وجه ذلك ووجه كفره: أن مقتضى قوله طعن في الأنبياء والمرسلين بداية من آدم عليه السلام، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، ويونس، وموسى، والأسباط، وداود، وسليمان، ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، ودليل ذلك ما مرّ من الآيات القرآنية والأحاديث الصحاح، ومن ثم، فهو إجماع لا خلاف فيه، أو لا ينبغي أن يكون فيه خلاف؛ وذلك لأن التنقّص من أنبياء اللَّه كفر بواح يوجب القتل الذي يقوم به أولياء الأمور، وهو تنقص للصحابة واتهامهم بالضلال والزيغ، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالذي يطعن فيمن رضي اللَّه عنهم ورسوله فقد خالف القرآن والسنة وشاقّهما فهو كافر، ووجه الطعن كذلك من لازم القول بمخالفة هذه الفائدة.

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قلت: فإذا كان لازم القول غيظًا للصحابة فقد دخل تحت هذه الآية.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٣٢):

«ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك -رحمه اللَّه، في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية.

ووافقه طائفة من العلماء على ذلك، والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء اللَّه عليهم، ورضاه عنهم». اهـ

فإن قال قائل: لازم القول ليس بقول، قلت: أحسنت هو هذا، ولكن هذا لمن لم يدرك لازم قوله، فمن أدركه وقصده فهو لازم له، فأصبح لازم قوله قولًا له وذلك لأن ذم من كان من أهل السنة والجماعة؛ لِمَا كان منه قبل الالتزام على المعتقد الصحيح، يُفهم منه الطعن في صحابة رسول اللَّه ﷺ؛ لأنهم كانوا كفرة قبل إيمانهم، والكفر أعظم جرمًا من البدع غير المكفرة، ووجه ذلك: أن علة الطعن ما كان، وهو عامل مشترك بين المذموم والصحابة كما هو كذلك بالنسبة لبعض الأنبياء؛ لما كان منهم من المعصية والكفر قبل البعثة والرسالة، كما مرّ آنفًا بدليله، ويكفي هنا: عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

● [وإنما يُفهم فقه هذا الكلام؛ بمعرفة عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] الدَّال على العذر بالجهل، الذي هو أصل أهل السنة والجماعة، فعموم الآية يُنزّل على أهل الفترة، كما يُنزّل على مَنْ جهل الدليل من المسلمين، بإجماع من أهل العلم سلفًا وخلفًا، وعليه، لا يقول قائل: لا عبرة بكفر الصحابة قبل البعثة حيث لا تكليف في زمن الفترة، والذي رجحته هو كلام المحققين من أهل السنة.]

وعلى ضوئه، فإن كان الذي يقول بذم أهل السنة على ما كان منهم من قبل

هدايتهم للحق، لا يدري الحكم الشرعي فهو جاهل جهلًا مركبًا، فإن علم ما مرّ من الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع فاهتدى ورجع، فهذا ما نريده لكل المسلمين والحمد للَّه رب العالمين.

غير أننا لن نعامله معاملته للمذموم عنده؛ لأنه إنما ذمه لجهله، وفرق بين الجاهل والعالم حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وإلَّا -وعلى طريقته في الذم- لزمه الذم؛ لأنه كان على ضلال في المسألة وقد خالف فيها الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع، فلو أخذناه بما أخذ به هو من ذمّه لذممناه؛ ولكننا نعذر بالجهل لأنه أصل من أصول أهل السنة والجماعة، وأصل آخر عندهم: أنهم يحكمون على الرجل بما آل إليه حاله.

وإن كان هذا الذامّ يدري الحكم الشرعي في المسألة، فحاصل حاله الجحود والهوى والزيغ والضلال، يتنزل عليه **قول عطاء بن أبي رباح الذي رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٤٥٥) حيث قال:**

«بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان».

وعليه، فقد توجّب على كل من ظلم نفسه وقصّر في تعليمها، وتكلم في دين اللَّه بغير علم أن يلتزم الصمت سنين عدة حتى يُحَصِّل ما يؤهله للتكلم في دين اللَّه؛ لأن الجهل مذمّة عظيمة، ونقيصة فاضحة، فضلًا عن أن يُنزلوا أنفسهم منزلة العلماء!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فلِعِظم التكلم في دين اللَّه بغير علم عطفه اللَّه على الإشراك باللَّه.

وإنه بالتتبع والاستقراء ليُعلم أنه لا يتجرّأ على التكلم في دين اللَّه بغير علم إلا السفهاء ممن ينسبون أنفسهم إلى طلب العلم وبينهم وبين العلم خرط القتاد!!

وماذا عليهم لو أنهم قالوا: علِّمونا فإنا جهلاء؟! بل سَوَّدوا أنفسهم قبل تَفَقُّهِهِمْ.

ومن هنا يعلم الحصيف الفطن أهمية تحصيل العلوم الشرعية قبل التكلم في دين اللَّه، إذْ مناط التكلم في دين اللَّه وسببه هو تحصيل العلوم الشرعية بالقسط الكافي في السنين الطويلة، فإذا استوى عُودُهُ في الطلب وتخطى سنّ الأربعين ولم يقصّر قبلها في أخذ كل العلوم الشرعية في خطوط متوازية زمن الطلب، وشهد له أهل العلم الذين هم أهل العلم حقًّا، فله حينئذ أن يتكلم في دين اللَّه، فإذا لم يكن ذلك كذلك فقد توجّب عليه الصمت الذي هو سبيل النجاة.

روى الترمذي في سننه (٢٥٠١) بسند فيه ابن لهيعة، عن عبد اللَّه بن عمرٍو قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**من صمت نجا**».

وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٨١٩) ورمز لضعفه.

لكن قال المُناوي في فيض القدير (٦/ ٢٢٩):

«قال ابن حجر: الأحاديث الواردة في الصمت وفضله كـ: «**من صمت نجا**»، وحديث ابن أبي الدنيا بسند رجاله ثقات: «**أيسر العبادة الصمت**» لا يعارض حديث ابن عباس الذي جزم بقضيّته الشيخ في التنبيه، من النهي عن صمت يوم إلى الليل؛ لاختلاف المقاصد في ذلك، فالصمت المرغب فيه: ترك الكلام الباطل وكذا المباح إنْ جرّ إليه، والصمت المنهيُّ عنه: ترك الكلام في الحق لمن يستطيعه، وكذا المباح المستوي الطرفين.

قال الزَّيْن العراقي: سند الترمذي ضعيف، وهو عند الطبراني بسند جيد. اهـ

وقال المنذري: رواة الطبراني ثقات. اهـ

وقال ابن حجر: رواته ثقات». اهـ

قلت: وعليه فالحديث ثابت، ومن أشد الباطل: التكلم في دين اللَّه بدون علم.

● **الفائدة السابعة: الأعمال بخواتيمها، ودليل ذلك:**

وهذه الفائدة عليها إجماع الأمة قاطبة لا خلاف فيها ألبتة.

فقد روى البخاري في صحيحه (٤٦٧٥) ومسلم (٢٤) عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال:

«لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «**أي عمّ، قل لا إله إلا اللَّه أُحَاجُّ لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: فقال: أنا على ملة عبد المطلب».

وأضف إلى هذا الحديث: الحديث الذي رواه أحمد في المسند (٢١٩٣٣)، والحاكم في المستدرك (١٨٤٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو داود في سننه (٣١١٦)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال في مرض موته:

سمعت من رسول اللَّه ﷺ شيئًا كنت أكتمكموه، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه وجبت له الجنة**»، وفي رواية: «**دخل الجنة**».

وهذا أمر لا يعارض فيه أو يجحده إلا جهول متبجح، بل هو من أوائل مسائل العلم يعلمها الأمّي والعامّي، ولولا أنه قد وجد من ذم الناس على ما كان منهم قبل الهداية إلى الحق ما خططت هذا الكتاب، أضف إلى ذلك: ذيوع الجهل وانتشاره، ورواج هذا الكلام الباطل العفن على الكثير من الشباب بل والرجال حتى صار جميعهم يردّدونه كالببغاوات التي لا تدري ما يخرج من رأسها، ومن ثم اضطررت للكتابة.

وعلى ضوء هذه الأحاديث وأمثالها قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٩-٣٠٠):

«والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها.

واللَّه تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم علَّمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء في حال النهاية

حالهم أكمل الأحوال.

ومنْ هنا غلط مَنْ غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

فإذا اعتبرت تلك الحال، ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلّا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب . . . وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرًا فأسلم ليس بصواب، بل الاعتبار بالعاقبة، وأيّهما كان أتقى للَّه في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم، أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا باللَّه ورسوله بعد كفرِهِمْ هُمْ أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم». اهـ

قلت: وبمثل ذلك يُقال على من كان مع أهل الأهواء والبدع ثم تاب اللَّه عليه وأحسن التوبة النصوح وأظهر ما كان عليه أهل البدع والأهواء من الزيغ والضلالات وفضحهم بما عرف من أمرهم وملتهم ومذهبهم وصنّف في ذلك الكتب وبرهن على ما يقول بالدليل من الكتاب والسنة والإجماع، فمثل هذا لا يُعادَل به آلاف ممن كانوا على الجادة مذ عرفوا عقولهم؛ لأنهم ما عرفوا الباطل الذي عليه أهله حتى يجتنبوه، لذلك تجد الكثير منهم ينحرف بعد صلاح بدايته وهو في انحرافه على يقين أنه على الحق، وحقيقة أمره أنه جاهل جهلًا مركبًا، ما أوقعه فيه إلا جهله بمسائل البدع وعدم إلمامه، بل عدم معرفته ابتداءً بالفرقان بين الحق والباطل.

ومن هنا قال الفاروق عمر رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وذلك لأن عدم معرفته بها تجعله يقع فيها وهو يظن أنه على خير.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهذه الآيات تبين أن العبرة بالعاقبة وبكمال المآل؛ **لذلك قال ابن تيمية - كما مر من المجموع (١٠/ ٣٠٠):**

«ولو اعتبر ذلك؛ لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم حين نُفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر؛ فعُلم أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال». اهـ

● **الفائدة الثامنة: كليم اللَّه موسى عليه السلام وذنبه بقتل الرجل وتأكيد لما رجّحه ابن تيمية:**

قال اللَّه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٦].

قال القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٩٨-١٩٩):

«قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي من إغوائه، قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال، ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ خبر بعد خبر، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾: ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه، قال قتادة: عرف واللَّه المخرج فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على

نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له، حتى أنه في القيامة يقول: إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، وإنما عدده على نفسه ذنبًا وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر.

وأيضًا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم.

قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريدًا للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه، قال: وقد قيل إن هذا كان قبل النبوة.

قال كعب: كان إذ ذاك ابن اثني عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ، فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: من المعرفة والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عونًا للكافرين.

قال القشيري: ولم يقل بما أنعمت عليّ من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالمًا بأن اللَّه غفر له ذلك القتل.

وقال الماوردي: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من المغفرة، وكذلك ذكر المهدوي والثعلبيّ، قال المهدوي: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من المغفرة فلم تعاقبني.

الوجه الثاني: من الهداية». اهـ

قلت: ثم هل هناك أصرح من قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]؟ فهو حجة قوية جدًّا في هذا الباب؛ لذلك جعل ابن تيمية صرف ظاهر هذا تأويلًا كتأويل الجهمية والرافضة والقرامطة.

وكذلك هنا في حال موسى: فإن كان هذا الذنب على القول بأنه قبل النبوة - وهو ظاهر الآيات بعد ذلك؛ لأن موسى ما أوحي إليه إلا بعدما ذهب إلى مدين ثم سار منها بأهله بعد عشر سنين، ثم ناداه ربه حينئذ، كما في آيات سورة القصص من الآية (٢١-٣٥)- فقد ثبت عدم العصمة قبل النبوة، وإن كانت بعدها، فهو أحرى بالاستدلال به لموضوع البحث وأقوى.

● **الفائدة التاسعة: معنى قوله تعالى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]:

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في «جامع البيان في تأويل القرآن» (٣٠/ ٢٥٢):

«﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: ووجدك على غير الذي أنت عليه.

وقال السدي في ذلك ما: [٣٧٦٣٩] حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن السدي: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ قال: «كان على أمر قومه أربعين عامًا».

وقيل: عنى بذلك: ووجدك في قوم ضلال فهداك». اهـ

قلت: أما القول الثاني فبعيد وصرف للظاهر عن ظاهره بدون دليل؛ إذْ كيف يقول الله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ ثم يصرف هذا إلى قومه دونه؟! والأصل حمل اللفظ على ظاهره بالإجماع.

قال الحافظ أبو الحسن بن القطان في «الإقناع في مسائل الإجماع» (١/ ٦٥):

«واتفق المحققون على منع إزالة الظواهر من غير دليل». اهـ

وقال الشافعي في «الرسالة» (ص: ٥٥١):

«والقرآن على ظاهره حتى تأتي دلالة منه أو سنة أو إجماع بأنه على باطن دون ظاهر». اهـ

وقال الشوكاني في «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (٢/ ٧٥٥):

«واعلم أن الظاهر دليل شرعي يجب اتباعه والعمل به؛ بدليل إجماع الصحابة على العمل بظواهر النصوص». اهـ

وقال الجويني في «البرهان في أصول الفقه» (١/ ١٩٤):

«إن الظاهر حيث يطلب العمل به، والمكلف محمول على الجريان على ظاهره في عمله، فالمعتمد فيه والأصل: التمسك بإجماع علماء السلف والصحابة ومن بعدهم، فإنا نعلم على قطع أنهم كانوا يتعلقون في تفاصيل الشرائع بظواهر الكتاب والسنة». اهـ

وقال الزركشي في «البحر المحيط في أصول الفقه» (٣/ ٤٣٦):

«الظاهر دليل شرعي يجب اتباعه والعمل به، بدليل إجماع الصحابة على العمل بظواهر الألفاظ». اهـ

قلت: ولم يذكر شيخ المفسرين غير هذين القولين؛ أسند الأول وهو قول السُّدّي، وضعف الثاني بقوله: «وقيل» وهذا يُستنبط منه ترجيحه للقول الأول الذي يعني:

ما قاله القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ٧٠) عند الآية:

«وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافرًا والقوم كفار فهداك». اهـ

قلت: يؤكد ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه (١٣٩/ ١٠٦١) في قصة غنائم حُنين، وفيها: أن رسول اللَّه ﷺ قال للأنصار: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالًا فهداكم اللَّه بي؟، وعالةً فأغناكم اللَّه بي؟**».

وإنما هداهم اللَّه برسوله ﷺ من الكفر إلى الإيمان، وظاهر الآية كظاهر الحديث؛ قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٧-٨]، واللَّه أعلم.

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال القرطبي في «جامعه» (١٦/ ٤١):

«الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان، وظاهر هذا: يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفًا بالإيمان.

قال القشيري: وهو من مجوّزات العقول؛ والذي صار إليه المُعْظَم: أن اللَّه ما بعث نبيًّا إلا كان مؤمنًا قبل البعثة، [قال القرطبي]: وفيه تحكّم، إلا أن يثبت بتوقف مقطوع به». اهـ

قلت: وليس هناك توقف مقطوع به.

ولقد ردّ القرطبيّ هذا القول جدًّا وأنكره وهو الذي عليه عامة المفسّرين، **ثم قال في نهاية المسألة (١٦/ ٤٤):**

«قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنًا باللَّه ﷻ من حين نشأ إلى حين بلوغه على ما تقدم». اهـ

قلت: فإنذ المسألة فيها خلاف على ما قرره شيخ الإسلام؛ لذلك قال القرطبي مرجحًا ما رجحه: «والصحيح . . .» أي: الصحيح في المسألة من الاقوال على ما رجَّحه عامة المفسرين.

غير أنه القول الذي يوافق ظاهر الدليل والآية لذلك رجّحه السدي، ورواه الطبري عنه ولم ينكره عليه ولا علق عليه، بل رواه من غير نكير، وكأنه يلمح إلى اختياره واكتفى به مع قول آخر ضعيف قد بيّن ضعفه.

ولقد أراد بعض المفسرين الاستدلال لهذا القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني: أهل القرية، فهناك محذوف.

قلت: نعم الآية تحتمل وجود هذا الحذف، أما قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ الضمير يعود على مفرد لا على جمع؛ إذْ كيف يقال: وجدك بمعنى ووجد قومك؟! ويقال: ووجد قومك ضالًّا لا ضلالًا؟! فهذا بعيد عن اللغة العربية، أو بعيد عن ظاهر الآية، ولكن وُجد فيها الضلال بمعنى الغفلة والنسيان، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وللراغب الأصفهاني كلام قوي وطويل في معنى الضلال في كتابه «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٢٩٧-٢٩٩) ورجح بأنه: غير مهتد لما سبق إليه من النبوة فقال:

« . . . ألا ترى أنه قال في النبي ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غير مهتد لما سبق إليك من النبوة، وقال في يعقوب: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال أولاده: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه . . . ». اهـ

قلت: غير أن الأمر قبل البعثة مختلف على ما تقرر من كلام شيخ الإسلام؛

ناقلًا قول جمهور الناس أن العصمة إنما هي بعد البعثة في عدم الإقرار على الباطل والذنب، أما قبلها فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وهذا عام في بني آدم جميعًا، وقد مرّ الاستدلال على ذلك.

ولكن يقال في هذا السياق: هذا قول قال به أئمةٌ مفسّرون لكتاب اللَّه وعلى الأخذ بهذا القول يهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، وهو ما تقرر من قبل في عدم عصمة الأنبياء من الكفر قبل البعثة، ولا يحملنّ أحدكم التهيّب على مخالفة قول هو ظاهر الأدلة أو إنكاره، فإن القول الشاذ ما خالف الحق والنصوص، والحمد للَّه رب العالمين.

● **الفائدة العاشرة: الإمام حذيفة بن اليمان خبير الفتن والشر والجهالات** رضي الله عنه:

روى مسلم في صحيحه (٥١/ ١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه **قال:**

«كان الناس يسألون رسول اللَّه ﷺ عن الخير، وكنت أسألُهُ عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كُنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا اللَّه بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» الحديث.

قال أبو العباس القرطبيّ في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤/ ٤٢/ ح١٤٢٦):

«قول حذيفة: (كان الناس يسألون رسول اللَّه ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر) يعني: أنه كان أكثر مسائل الناس عن الخير، وكانت أكثر مسائله عن الشر، وإلَّا فقد سأل غيرُه رسولَ اللَّه ﷺ عن كثير من الشرّ، وقد كان حذيفة أيضًا يسأل رسول اللَّه ﷺ عن كثير من الخير.

والخير والشر المَعْنِيَّان في هذا الحديث إنما هما: استقامة أمر دين هذه الأمة، والفتن الطارئة عليها؛ بدليل باقي الحديث وجواب النبي ﷺ له بذلك.

وقوله: (مخافة أن يدركني) يدل: على حزم حذيفة وأخذه بالحذر، وذلك أنه كان يتوقع موت النبيّ ﷺ فيتغير الحال، وتظهر الفتن؛ كما اتفق». اهـ

قلت: ولقد اتفق أهل العلم على أن أعلم الصحابة بالفتن هو حذيفة رضي الله عنه، وإنما وصل إلى هذا العلم؛ بكثرة سؤاله لرسول اللَّه ﷺ عن الشرّ مخافة أن يدركه،

فمنعه فقهه وفهمه وعلمه ﷺ عن أن تؤثر عليه الفتن فلا يعرف فيها الحق من الباطل؛ فمن لم يعرف الحق من الباطل ضل ضلالاً مبينًا، وتقرب إلى اللَّه بعين ما يُبعده عن اللَّه تعالى، ونطق بالباطل يظنه الحق، ودافع عن البدعة يراها السنة، وتسربل بسربال الجهل في صورة التزيّن بالعلم.

ويؤكد ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة في المصنّف (٣٨٤٤٧) في كتاب الفتن، عن أبي مسعود عن حذيفة بن اليمان قال:

«أما تعرف دينك يا أبا مسعود!» قلت: بلى. قال: «فإنها لا تضرّك فتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل فلم تدر أيّهما تتبع، فتلك الفتنة».

فانظر -رحمك اللَّه وهداك للحق- إلى سبب وقوع الفتن بالمرء وتأثيرها عليه، فإنما هو: عدم معرفة الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والهدى من الضلال، والاستقامة من الزيغ والميل والانحراف، والخير من الشر.

فإذًا، العصمة بإذن اللَّه في العلم، وهو: معرفة الخير والشر، فيعرف الخير ليمتثله، والشر ليجتنبه ويحذره ويُحذّر منه.

فإذا لم يعرف طالب العلم البدع وقع فيها وفُتن بها، وكذلك الباطل فإن الذي لا يعرفه وقع فيه، ومن علم كان معه الفرقان الذي به يُفرّق بين العلم والجهل.

وعلى ضوئه تعرف أهمية ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه الطويل في المجموع والذي مرّ مفصّلًا.

- **بيان سبب آخر لتصنيف الكتاب:**

وإنه لمن جملة الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا الكتاب، إضافة إلى ما ذكرته في المقدمة: إظهار الحق وبيانه بدليله في المسألة المطروحة؛ لتنكشف للمغرَّر بهم حقيقة سفه وجهل وتعالم وغشّ وهوى وخواء وغباء من قال بهذه المقالة وسعى في نشرها؛ وإنما دفعه إليها هواه وبغضه وحقده لبعض أهل السنة، فغلبته شهوته حتى ذهب مذهب الزائغين المنحرفين، وتملك منه هواه ونفسه الأمارة بالسوء، وهذا يتنزّل على هذه الطائفة كلها، إذْ هم كثير يا بُنَيّ، وهذا على إحساننا الظن بهؤلاء؛

فإنْ عاملناهم بظاهر أمرهم قلنا: جهلاء سفهاء متعالمون متشبّعون بما لم يعطوا، يدّعون من العلم ما يشهد من حولهم أنهم كذبة في ادّعائهم، ولولا تشبع من حولهم بالنفاق والحرص على المصالح الدنيوية لواجهوهم بما فيهم من الخلل العقدي النفسي المرضي، فنعوذ باللَّه من دولة النفاق التي حاقت بهم.

فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٣٢٦) في كتاب الفتن عن محمد بن علي بن أبي طالب قال:

«رحم اللَّه امرأً كفّ يده، وأمسك لسانه، وأغنى نفسه، وجلس في بيته، له ما احتسب، وهو يوم القيامة مع من أحبّ، ألا إن الأعمال أسرع إليه من سيوف المؤمنين، ألا إنّ للحق دولة يأتي بها اللَّه إذا شاء».

واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه رب العالمين.

* * *

الفصل الثاني
طلبة التجهيل بين الجهل المركب والبسيط

● **في معنى الجهل المركب والبسيط:**

قال الجُرجاني في «التعريفات» (ص: ٧١):

«**الجهل هو**: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.

والجهل البسيط هو: عدم العلم عمّا مَنْ شأنه أن يكون عالمًا.

والجهل المركب هو: عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع». اهـ

وقال ابن فارس في «مقاييس اللغة» (١/ ٤٨٩-٤٩٠):

«الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خِلاف العلم، والآخر الخِفَّة وخلاف الطمأنينة.

فالأول: الجهل نقيض العلم، ويقال للمفازة التي لا علم بها مَجْهَلٌ.

والثاني: قولهم للخشبة التي يُحرّك بها الجمر: مِجْهَل، ويقال: استَجْهَلَت الريح الغُصن، إذا حرّكته فاضطرب، ومنه قول النابغة:

دعاك الهَوَى واستجهلتك المنازلُ وكيف تَصَابِي المرء والشَّيْبُ شاملُ

وهو من الباب؛ لأن معناه: استخفَّتْك واستفزَّتْك.

والمَجْهَلَةُ: الأمر الذي يحملك على الجهل». اهـ

وقال الراغب الأصفهاني في «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٠٢):

«الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يُفعل سواءً اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو

فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمّدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فجُعل فعل الهُزُو جهلًا، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

والجاهل تارة يُذكر على سبيل الذمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذم؛ نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: من لا يعرف حالهم، وليس يعني المتخصِّص بالجهل المذموم». اهـ

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (مادة: جهل) (١/ ٧١٣):

«الجهل نقيض العلم، عن سيبويه.

وقال الجوهري: تجاهل: أرى من نفسه الجهل وليس به، واستجهله: عدّه جاهلًا واستخفّه أيضًا.

والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، وجَهِلَ فلانٌ حقَّ فلان، وجهل فلان عليَّ وجهل بهذا الأمر.

والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير علم.

قال ابن شميل: إن فلانًا لجاهل من فلان أي جاهل به.

قال ابن جنِّيّ: قالوا جهلاء كما قالوا علماء، حملًا له على ضدّه، رجل جهول: كجاهل.

والمجهلة: ما يحملك على الجهل، ومنه الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة مجهلة**»[1]، وقال مُضَرِّس بن ربعي الفقعسي:

إنَّا لنصفح عن مجاهل قومنا ... ونقيم سالفة العدُوِّ الأصْيَدِ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٤٩٢)، والحاكم في المستدرك (٤٧٧١) وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢٢٢٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٢)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٤): «رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات»، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير (٢١٥١) وصححه، وقال المناوي في فيض القدير (٢/ ٥٢١): «وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح، . . وقال الذهبي: إسناده قوي». اهـ، وانظر: المقاصد الحسنة (ح١٢٦٧).

وأرض مجهل: لا يُهتدى فيها، وأرض مجهولة: لا أعلام فيها ولا جبال». اهـ مُلخَّصًا.

وقال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٢٥٤-٢٥٩):

«ولفظ الجاهلية قد يكون اسمًا للحال، وهو الغالب في الكتاب والسنة، وقد يكون اسمًا لذي الحال.

فمن الأول: قول النبي ﷺ لأبي ذرك: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[(١)]، وقوله: «يا رسول اللَّه كنَّا في جاهلية وشرّ» أي: في حالة جاهلية أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية ونحو ذلك.

فإنّ الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة، لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسمًا، ومعناه قريب من معنى المصدر.

وأما الثاني فنقول: طائفة جاهلية، وشاعر جاهلي، وذلك نسبة إلى الجهل، الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلًا بسيطًا، فإن اعتقد خلاف الحق: فهو جاهل جهلًا مركبًا، فإن قال خلاف الحق عالمًا بالحقّ أو غير عالم: فهو جاهل أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال النبي ﷺ: «**إذا كان أحدكم صائمًا، فلا يرفث ولا يجهل**»[(٢)].

ومن هذا قول بعض شعراء العرب:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا كثير، وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال أصحاب محمد ﷺ:

---

(١) رواه مسلم (١٦٦١)، والبخاري (٣٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وأبو داود في سننه (٢٣٦٣).

«كل من عمل سوءًا فهو جاهل»[١].

وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم.

ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مستحق[٢] الإيمان حقيقة لا مجازًا، وإن لم يكن كل من ترك شيئًا من الأعمال كافرًا ولا خارجًا عن أصل مسمّى الإيمان، وكذلك اسم: العقل، ونحو ذلك من الأسماء.

ولهذا يسمي اللَّه أصحاب هذه الأحوال: موتى، وعميًا، وصمًّا، وبكمًا، وضالين، وجاهلين، ويصفهم بأنهم: لا يعقلون، ولا يسمعون.

ويصف المؤمنين: بأولي الألباب، وأوْلي النهى، وأنهم مهتدون، وأن لهم نورًا، وأنهم يسمعون ويعقلون.

فإذا تبين ذلك، فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية؛ منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون: من يهودية ونصرانية، فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ، قد تكون في مِصْرٍ دون مِصْرٍ، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أنْ يُسْلم، فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة[٣].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية (٨٧٢٩)، وقتادة (٨٧٣٠).

(٢) في نسخة: «مسمّى».

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧٤٦٠)، ومسلم (١٥٦، ١٩٢٢) ولفظه: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك**».

والجاهلية المقيّدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما قال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**»[١]، وقال لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[٢] ونحو ذلك». اهـ

- **غلمانٌ صبيانٌ بِلِحَى، فيهم جاهلية:**

فإذا تقرر عندك ما مضى بيانه مفصّلًا في هذا الفصل فاعلم:

أنه قد نبتت نابتة شيطانية ينتسبون إلى طلب العلم، والعلم والعلماء وطلبة العلم حقًّا منهم برآء؛ إذْ حالهم بين الجهل والجهالة والمجهلة والتجهيل، يَحْيَوْن بين الجهل المركب والبسيط، أما الجهل البسيط -كما مرّ ذكره- فهو خلو النفس من العلم، وأما الجهل المركب: فهو اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه وجهله بأنه ليس كذلك، أو هو عبارة عن اعتقاد جازم لا شك فيه غير مطابق للواقع، بمعنى: أن الشاب منهم يعتقد الباطل وهو يجزم بكونه حقًّا فهم كما وصفهم شيخ الإسلام آنفًا في «اقتضاء الصراط المستقيم» أنهم: موتى، عميٌ، صمٌّ، بكمٌ، ضالون، جاهلون، لا يعقلون، ولا يسمعون، ولا يهتدون، وهم على ما فيهم من الجهل والضلال مُصِرُّون مستقرّون.

ثم أضف إلى هذه الأوصاف: أنهم أصحاب هوًى زائغون منحرفون عن الحق وعن الجادة المستقيمة، حاقدون، حاسدون، مبغضون لأهل السنة، وإن زعموا في ظاهر أمرهم لبادي الرأي أنهم يحبّون أهل السنة ويبجّلونهم، بل -واللَّه- يصدون عن السنة وعن سبيل اللَّه، تتحكم فيهم الشهوات والأهواء حتى أنهم قد يتحدون مع أهل الأهواء في بعض الأحايين؛ لو اتفقوا معهم على ما يريدون، خالف ما يريدون الكتاب والسنة والحق أم لم يخالف؛ لا يبالون؛ **فهم كما وصفهم عطاء بن أبي رباح فيما رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٤٥٥) قال:**

«بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان».

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤).

(٢) حديث متفق عليه وقد مرّ قريبًا.

وهذا الأثر إما أنه له حكم المرفوع إلى رسول اللَّه ﷺ بسند صحيح منقطع مرسل، أو هو من قول الصحابة ﷺ بسند متصل صحيح.

ولمَّا كان حالهم بين الجهل المركب والبسيط فيجدهم العاقل يتكلمون في دين اللَّه بلا علم ولا فَهْم ولا وعي، ومع جهلهم المطبق تجدهم يتزيّنون بقشور العلم، متعالمين مدّعين للعلم -وبينهم وبين العلم المفاوز والبحار- منافقين كذابين، ثم من خلال هذا الزعم والادّعاء بالعلم تجدهم يُصنّفون الناس فيجعلون فلانًا -الذي هو من جلدتهم، ويتكلم بلسانهم، وينافق نفاقهم- يجعلونه من أهل العلم الثقات الأثبات، ومن خالف هواهم ورفض نفاقهم وكذبهم وسفههم، ولم يرض بجهالتهم: سفّهوه وسبّوه وأسقطوه، في منظومة من البهت اليهودي الذي مارسه اليهود مع الصحابي الجليل العالم عبد اللَّه بن سلام ﷺ، حيث وصفوه فقالوا: عالمنا وابن عالمنا... ثم لما أخبرهم بإسلامه قالوا: سفيهنا وابن سفيهنا وجاهلنا وابن جاهلنا، فتجدهم مع ما هم فيه من الهلاك يباشرون التجهيل، فيُجَهِّلون من شاءوا، ويخفضون بكلامهم من شاءوا، ويرفعون به من شاءوا بلا أثارة من علم.

ثم مع ذلك تجدهم فرقًا وأحزابًا وجماعات متشرذمة متناحرة متفرّقة وكلهم يزعم أنه من أهل السنة والجماعة، يُسفّه بعضهم بعضًا، ويشتم بعضهم بعضًا، ويُجَهّل بعضهم بعضًا؛ وكل واحد منهم هو عند نفسه الجهبذ الذي حُقَّ له أنْ يتكلم في دين اللَّه، وكل من دونه جهلة.

ثم مع ذلك تجدهم مقلدين تقليدًا أعمى متعصّبين لمن ينتمون إليه من المشايخ، كادوا أن يجعلوا لمشايخهم العصمة، ومن خالف شيخهم بحق قَطَّعوه بألسنتهم الحداد، والصبيّ منهم إن أحسنا إليه قلنا: هو الرويبضة بعينه يتكلم في أمر العامة، والغريب أنهم ينتسبون إلى شيخهم وهم لا يحضرون لشيخهم مجالسه العلمية، وهذا عبثٌ رهيب!!

ومع كثرة تنقّلي بين القرى والمحافظات، فلم أجد مِصرًا أو قرية قد خلت من هذا الصنف من الغلمان ذوي اللِّحَى المفسدين في الأرض باسم السنة والسلفية، ولو سُئل -واللَّه- فيما لا يسع المسلم جهله لانقطع!!

* **فمن طوام هؤلاء الصبيان**: تسفيه كل أهل السنة في بلادنا عدا شيخهم وهذا هو حقيقة أمرهم مع كثرتهم واختلاف مشايخهم، وإن أظهروا عكس ذلك على حسب قُوّة المُسَفَّهِ عندهم وضعفه في الردّ، وعلى حسب شهرته وعدمها، وعلى حسب بطانته وحاشيته؛ وغالبهم يتكلم بالرمز والتلميح وعدم التصريح بالاسم؛ لأن أمرهم قائم على الهوى والشهوة لا على الدليل والحق، إذْ لو صرّحوا لبُهتوا وانقلبوا خاسرين وبدّعهم العقلاء؛ إذ كيف يحارب هؤلاء الجُرذان الهمج الرعاع رؤوس أهل السنة، وما دليلهم الشرعي على ما يفعلون، ومن فرط جُبْنهم وعلمهم أنهم على باطل، إذا واجهت أحدًا منهم أنكر وكذّب كذبًا بَيّنًا، وظل يُثني على مَنْ يُعلم مِنْ حاله أنه يطعن فيه ويسعى في إسقاطه بلا مرية، ولكنها التقية الرافضية التي دبّت في قلوب صبيان أهل السنة وأُشْرِبَتْها نفوسهم، فصارت تنضح عليهم في كل وقت وحين، حتى في غير وقت احتياجهم على ما تقرر عندهم من الضلال المبين.

* **وكانت من طوامهم التي انتشرت عند عامتهم**: النَّيْل من رجال أهل السنة والتشهير بهم على ما كان منهم قبل أن يهديهم اللَّه إلى الحق فقالوا بما كان لازمه الكفر المتحصل من الطعن في الأنبياء والمرسلين، ومن ثم الطعن في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ثم الطعن في صحابة رسول اللَّه ﷺ و رضي الله عنهم.

ولأن هؤلاء الصبيان ذوي اللحى لا عقول لهم ولا فقه ولا فهم، صاروا بقولهم هذا يطعنون في مشايخهم الذين يتعصّبون هم لهم.

ووجه ذلك الطعن: أني لا أعلم رجلًا من مشايخ أهل السنة في بلدنا، إلا وكان له أقوال وآراء توافق أهل البدع والأهواء والضلالات، أو كان معهم ثم تاب اللَّه عليهم فاهتدى إلى الحق حتى أصبح جميعهم سيوفًا مُصْلتة على أهل البدع والأهواء والضلالات يفضحونهم ويظهرون عوارهم ويُصنّفون فيهم الكتب والمقالات مستدلين على ما يقولون بالكتاب والسنة والإجماع وآثار السلف الصالحين، قد أعلنوا براءتهم مما كانوا عليه عشرات المرّات، والمرة منهم كافية، ولكن زيادة في البيان والتوضيح وإزالة اللبس والتدليس عن طلبة العلم الصغار، وإذا عرف الصبي منهم أن قوله هذا طعن في شيخه ما قاله.

وعلى ضوء ما مرّ بيانه في هذا المصنّف؛ فإن حالهم بعد الهداية والتوبة أفضل

ممن لم يقع في بدعهم أو قال ببعض قولهم؛ لأنه صار أخبر بهم من غيره الذي لا يعلم خبايا بدعهم، وما فضحهم الذي كان منهم، ثم تاب، إلا من خلال معرفته لتفاصيل ضلالهم ومذهبهم.

وهذا تجده ملحوظًا جدًّا على مرّ العصور والأزمان، فمثلًا: ما عرفنا الكثير من خبايا الإخوان المسلمين الإجرامية إلا من اعترافات من كان منهم.

وعليه، فهؤلاء الجهلاء من السفهاء الضلال المتبجّحين المتكبّرين المتعالمين الصبيان الفاسدين، إنما نطقوا بهذه الطامة: من تسفيه رؤوس أهل العلم؛ لما كان منهم قبل الهداية للحق، إنما قالوه من فرط جهلهم وسفههم وعدم علمهم لما يخرج من رؤوسهم؛ ولانعدام فقههم وفهمهم وتحكم الهوى والشهوة وطبع البهت في قلوبهم ونفوسهم، وهذا عهد العقلاء من أهل السنة بهم.

- **رسالتي إلى طلبة العلم المباركين الغرباء من أهل السنة:**

وفي هذا السياق، فإني أدعو طلبة أهل العلم من أهل السنة في شتَّى أنحاء مصر -حفظها اللَّه-، إذْ في خِضمّ هذه المعجنة يوجد من يصدق عليه أنه طالب علم حقًّا -وإن كانوا قلة قليلة، ولكن يبارك اللَّه في القليل بمنّه وجوده وكرمه سبحانه العليم الحكيم- فإني أدعو هؤلاء الطلبة المباركين من أهل السنة: أن يكونوا على قلب رجل واحد، على مثل ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، وأن يكونوا جادّين في الطلب، فيجتهدوا في حفظ كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ لاسيما آيات الأحكام في القرآن، وأدلة الأحكام من السنة، وأن يجتهدوا في معرفة الصحيح والضعيف من هذه الأدلة إذ عليها تقوم الفتوى ويكون التكلم في دين اللَّه، في الأمور العلمية والعملية وفي كل مسائل الشريعة مطلقًا بلا حصر، وأن ينتصبوا في تحصيل العلوم الشرعية من المصطلح واللغة والسيرة والتفسير وباقي العلوم الشرعية، وعلى رأسها علم أصول الفقه الذي به يصلح الاستنباط، وتصلح الفتوى، ويستقيم التكلم في دين اللَّه؛ لأن هذا العلم كما عرّفوه هو: العلم بالقواعد التي يُتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، التي هي الآية والحديث والإجماع، وقد بيّنت ذلك تفصيلًا في كتابي:

«أثر القواعد الأصولية في تصحيح المعتقد وردّ شبه المنحرفين» وهو الجزء (٢٣) من سلسلة تصحيح المعتقد.

وأن طالب العلم الفطن العاقل ليعلم؛ أنه لو أمضى عمره كله في تحصيل ما يُمَكّنه من التكلم في دين اللَّه من اكتمال شروط ذلك، لما استطاع أن يصل إلى غايته، واقرأ ما كتبه الأصوليون من شروط الاجتهاد والفتوى والتكلم في دين اللَّه، وعندك في ذلك كتاب: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر أبي عمر، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، وروضة الناظر لابن قدامة، والبحر المحيط للزركشي.

قال الشوكاني في «إرشاد الفحول» (٢/ ١٠٣٢):

«الشرط الرابع: أن يكون عالمًا بعلم أصول الفقه؛ لاشتماله على ما تمس الحاجة إليه، وعليه أن يُطوِّل الباع فيه، ويطلع على مختصراته ومطوَّلاته بما تبلغ إليه طاقته.

وعليه -أيضًا- أن ينظر في كل مسألة من مسائله نظرًا يوصّله إلى ما هو الحق فيها، فإنه إذا فعل ذلك تمكن من ردّ الفروع إلى أصولها بأيسر عمل، وإذا قصّر في هذا الفن صعب عليه الردّ وخبط فيه وخلّط.

قال الفخر الراي في المحصول -وما أحسن ما قال-: إن أهم العلوم للمجتهد أصول الفقه. انتهى.

قال الغزالي: إن أعظم علوم الاجتهاد على ثلاثة فنون: الحديث، واللغة، وأصول الفقه». اهـ

ومن هنا أجتهدُ كل جهدي في تصفية هذا العلم العظيم مما شابه من البدع والكلام والمنطق والفلسفة، كما في سلسلة: الأبحاث الفقهية الأصولية السلفية.

وكان آخر جزء فيها وهو مجلد كبير (٥٢٠ صفحة) كتاب: «الفِلَذُ شرح النُّبَذِ في أصول الفقه» وهو شرح لكتاب ابن حزم «النبذ في أصول الفقه» الذي هو اختصار لكتابه الكبير «الإحكام في أصول الأحكام» وقد وجمعت لطلبة أهل السنة فيه مسائل هذا العلم على سبيل الاختصار غير المخل بالإلمام بهذا العلم ينتفع به المبتدئ وغيره.

وعليه؛ فإن العقلاء من طلبة العلم لا يُضيّعون أوقاتهم على مواخير وخمّارات ومقاهي الفيس بوك، التي تسرق العمر سرقة، وعليها يُشيَّخ الصبيان والغلمان السفهاء والجهلاء الضلال، فحَرِيٌّ بكل طالب علم أراد أن يبارك اللَّه له في تحصيله وتعليمه أن يأخذ بأسباب التحصيل المعتبرة، وعلى رأسها تقوى اللَّه التي تمنع المكلف وطالب العلم من الولوج في سُبل الاعوجاج التي يتولّى كبرها سفهاء طلبة العلم المنحرفين، الذين لا يحسن الصبيّ منهم عند التحقيق: التكلم في مسألة من مسائل هذا الدين.

- **ماذا قال لي الشيخ رسلان على طلبة العلم؟**

وفي آخر لقاء لي بالشيخ محمد سعيد رسلان من أيام، استمر لقائي به ساعتين، فكان ممّا قلته: إن طلبة اليوم مشايخ الغد فلابد أن يجتهدوا في تحصيل العلم، فقال لي ساخرًا: «بل طلبة اليوم هم مشايخ اليوم!! أنت يا شيخ عيد تنزلهم فوق منزلتهم، هم ليسوا بطلبة علم، أنا ما أرى طالب علم». اهـ

وانظر كتابي: «معالم دعوة تتآكل بل تُنحر» وهو ضمن سلسلة تصحيح المعتقد.

وليعلم أبنائي من طلبة العلم: أن النجاة من الفتن والشرور تكون بالعلم، فلا تشغلوا أنفسكم إلا به، واتقوا اللَّه حتى لا يُقبض العلم فلن تجدوا من تذهبون إليه ليعلّمكم، وما كان ذلك كذلك إلا مما قدّمت أيدي السفهاء.

يا طلبة العلم: أهل السنة الذين هم أهل السنة في مصر يُعَدّون على أصابع اليد، وغالبهم بعد الخمسين والستين من أعمارهم، فقدّموا أسباب الاستخلاف بعدهم وإلا، فواللَّه تهلكون ولا تُسْتَخلفون ويتكلم فيكم الرويبضة.

يا طلبة العلم: يسخر منكم أهل الأهواء من المبتدعة الذين يحفظون كتاب اللَّه بالقراءات العشر، ويحفظون كتب السنن، ويحفظون متون الفقه والأصول، ويتميّزون في اللغة والنحو، ولا يستطيع غالبكم مناظرة أحدهم في بعض مسائل الشريعة، بل هؤلاء يصفونكم بالجهل والتبجّح، فأروا هؤلاء من أهل السنة علمًا وخيرًا ودعوكم من سفهاء الفيس بوك المنتسبين لطلب العلم زورًا وبهتانًا، قد أسكرتهم وسائل الاتصالات وعنها يأخذون، فهم في غمرتهم يعمهون، غالب هؤلاء لا شيخ لهم إلا الإنترنت!!

● **الطعن في رجال أهل السنة بأيّ وجه اليوم كالخيانة في ساحة المعركة وما يعقلها إلا العالمون:**

وإنه ينبغي للعقلاء من أهل السنة أنْ يعلموا أنّ أهل البدع والأهواء قد اجتمعوا على قلب رجل واحد؛ يقيمون الندوات والمؤتمرات العالمية، يُصَرّحون فيها بضرورة التصدي والمحاربة لأهل السنة، وبهذا قد أُعلن على الملأ ما كانوا يكنّونه في صدورهم، ورُفعت رايات الحرب فعلًا، فإن لم يكبح أصحاب الهوى والشهوات من غلمان أهل السنة وصبيانها أنفسهم عن الإفساد في الأرض لعلا وظهر أهل الابتداع علينا، ولنُكّست رايات السنة، نعوذ باللَّه من الخذلان.

بل أستطيع أن أعلنها صريحة: إذا كان علماء أهل السنة هم الذين يتصدَّوْن لأهل البدع ويكسرون شوكتهم بالحجة والبرهان، ويظهرون ضلالهم وزيغهم - حتى لا يفتتن بهم عوام المسلمين بما يؤدي إلى أن يلبّسوا على الناس دينهم الحق- وعليه، فإن الطعن في أي رجل من المجاهدين باللسان والقلم من أهل السنة، بعدما أُعلنت الحرب بينهم وبين أهل الابتداع، فإن هذا الطعن يعتبر خيانة عظمى في صفوف المسلمين؛ فإن أهل الأهواء والبدع أعظم خطرًا على المسلمين من اليهود والنصارى، من الحلف الصهيوصليبي العالمي الذي يريد القضاء على راية الإسلام والتوحيد، ووجه ذلك: أن المبتدعة من فرق المسلمين يفسدون ويخرّبون الديانة بقال اللَّه قال رسوله قال العلماء، أما الكفار فحالهم معلوم والحذر منهم موجود.

روى اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٣) عن الحسن البصري قال:

«أهل الهوى بمنزلة اليهود والنصارى».

وروى الآجري في الشريعة (٢٠٩٨) عن الإمام الفقيه العالم أبي قلابة قال:

«لا تجالسوا أهل البدع ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يُلبّسوا عليكم في الدين ما لُبِّسَ عليهم».

وروى الإمام ابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (٤٥٣) عن محمد بن النَّضْر الحارثي قال:

«إنَّ أصحاب الأهواء قد أخذوا في تأسيس الضلالة وطمس الهدى فاحذروهم».

وروى مسلم في صحيحه في المقدمة (٧) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيّاكم وإيَّاهم، لا يُضلّونكم ولا يفتنونكم».

وروى البخاري في صحيحه (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة ﷺ قالت:

تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالت: قال رسول اللَّه ﷺ:

«إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى اللَّه فاحذروهم».

قال النووي في «شرح مسلم» (١٦/ ١٦٥):

«وفي هذا الحديث التحذير من مخالطة أهل الزيغ وأهل البدع، ومن يتّبع المشكلات في الفتن». اهـ

وروى الإمام أبو القاسم اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٩، ٥٠) عن الإمام سفيان الثوري قال:

«استوصوا بأهل السنة خيرًا، فإنهم غرباء، إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سُنة وآخر بالمغرب فابعث إليهما بالسلام، وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة».

وروى اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد أيضًا عن أيوب السختياني (٣٠) أنه قال:

«إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما اللَّه إلى عالِمٍ من أهل السنة».

وروى اللالكائي أيضًا عن أيوب السختياني (٣٥، ٢٩) أنه قال:

«إن الذين يريدون موت أهل السنة يريدون أن يُطفئوا نور اللَّه بأفواههم، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون.

إني لأُخبر بموت الرجل من أهل السنة فكأني أفْقِدُ بعض أعضائي».

وروى البيهقي في الزهد الكبير عن الحسن بن علي (٣٤٨) أنه قال:

«الطريق واضح، ولكن الهوى فاضح، والفقه في العبادات: حفظ النفس عن الشهوات».

فهذا كلام سلفكم ومنهجهم وعقيدتهم، فهل أنتم منتهون مهتدون تفقهون تعقلون؟!

نسأل اللَّه -جلَّ وعلا- أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم، والهدي السليم، وأن يَرُدَّ الشاردين من أبنائنا إلى المسلك الحق وسبيل المؤمنين، وأن يجنّبهم شرّ أنفسهم وسوء الهوى وغلبة الشهوات، وأن يعلمهم ما ينفعهم، وأن يُنَفّعهم بما علمهم، وأن يجعله حجة لهم لا عليهم، وأن يُبصّرهم بما ينصلح به دينهم ودنياهم، وأن يجنبهم مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يُفقّههم في دينهم، وأن يرزقهم -بفضله ومنّه- الإحساس بهموم الدعوة والأمة، فإن الشعور بها يهذّب النفوس، ويُعقّل الرؤوس، ويكسر للهوى الكؤوس، ويردّ إلى مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، الفؤوس، التي صُدّعت بها وهُدّمت معالم الضلالة والردى، وعلت بها منارات السنة والهدى، حتى اهتدى العالمون بهديهم وسيرهم وعقيدتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ومنهجهم، وما ضل من ضل إلا بالإعراض عن طريقهم الذي فيه الفلاح والنجاة.

روى مسلم في صحيحه (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

قال النووي في شرح مسلم (١٦/ ٦٤) تحت باب: «بيان أنّ بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة»:

«قوله ﷺ: «**وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**» معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وظهور قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم». اهـ

قلت: وذهاب الصحب هو ذهاب منهجهم وهديهم.

وإني لا أستبعد على أهل الأهواء أن يدسّوا بين صفوف أهل السنة مَنْ يفسد عليهم أمرهم ويُفرّق جماعتهم ووحدتهم فاحذروهم؛ بتقوى اللَّه القائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فقوله تعالى: ﴿مَخْرَجًا﴾ نكرة في سياق الشرط الذي هو التقوى، والنكرة في سياق الشرط تعم عند الأصوليين بإجماع منهم، والمعنى: أن التقوى سبب لكل مخرج من كل ما يحتاج إلى مخرج من الكروب والهموم والفتن والشرور والنصب وكل سوء يُلم بالنفس البشرية.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فقوله: ﴿فُرْقَانًا﴾ نكرة في سياق الشرط الذي هو الإيمان فيعم كل فرقان، وهو الفيصل بين الحق والباطل.

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

وكتب

د. عيد بن أبي السعود الكيال

وكان الانتهاء من كتابته بعد فجر الخميس، الثالث من صفر ١٤٣٨هـ، الموافق الثالث من نوفمبر ٢٠١٦م، الهجانة، م. نصر، القاهرة، مصر حفظها اللَّه

فهرس الكتاب

- مقدمة ٣
- سبب تصنيف هذا الكتاب ٤
- خطبة البحث ٥

الفصل الأول:

تحرير القول في بيان ما يُعتبر في الحكم على الرجال

- تناول الموضوع من خلال كلام جليل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦
- بداية الكلام وما كان من يونس بن متّى عليه السلام ٦
- تبرئة يوسف عليه السلام ممّا نُسِبَ إليه ٧
- بيان غلط من فضّل الملائكة على الأنبياء والصالحين لاعتبارهم بداية الصالحين ٩
- بيان خطأ من ظنّ أنَّ من وُلِدَ على الإسلام فلم يكفر أفضل ممّن كان كافرًا ثم أسلم ١٠
- وكذلك من دخل مع أهل البدع فحاله أفضل ممن لم يدخل ١٢
- ذكر الأمثلة على ما يُبيّن ذلك من أحوال الصحابة رضي الله عنهم ١٢
- بيان خطأ قول الروافض: إن اللَّه لا يبعث نبيًّا إلّا من كان معصومًا قبل النبوّة ١٣
- ذكر الأدلة: على أنّ اللَّه قد بعث أنبياء كانوا قبل البعثة كفّارًا ١٤
- المنازعون يتأوّلون الأدلة المذكورة تأويل الجهمية ١٧
- بيان فساد هذا التأويل ١٧
- بيان الكلّية المأخوذة من حديث: «**كل بني آدم خطَّاء**» ١٩
- الفوائد المستنبطة ممّا أصّله شيخ الإسلام ابن تيمية بالكتاب والسنة والإجماع ١٩
- **الفائدة الأولى**: مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة أمرٌ

مختلف فيه ٢٠
• **الفائدة الثانية**: متى تكون الذنوب منافية للكمال؟ ٢١
• **الفائدة الثالثة**: بيان وجه الدلالة من الأدلة التي استدل بها ابن تيمية على أن اللَّه بعث بعض الأنبياء، كانوا قبل البعثة كفارًا ٢٢
• حال المهدي المنتظر وقد أصلحه اللَّه في ليلة ٢٥
• **الفائدة الرابعة**: إذا كان أمر الكفر أعظم من البدعة فماذا بعد؟! ٢٦
• **الفائدة الخامسة**: حال الإمام أبي الحسن الأشعري، ونُعيم بن حماد الخزاعي، شيخ البخاري ٢٦
• حال الإمام أبي علي الفضيل بن عياض ٢٦
• حال الإمام سفيان الثوري ٢٧
• **الفائدة السادسة**: الضابط المعتبر في الحكم على الرجال بكمال العاقبة والمآل التي صاروا إليها وأصبحوا عليها، لا بما جرى لهم في بداية الحال من زلل أو انحراف؛ لأن التوبة تجُبّ ما قبلها، وتحوّل السيّئات حسنات، فمن قال بعكس ذلك، فلازم قوله الكفر باللَّه العظيم، وبيان وجه ذلك ٢٨
• **الفائدة السابعة**: الأعمال بخواتيمها، ودليل ذلك ٣٢
• **الفائدة الثامنة**: كليم اللَّه موسى وذنبه بقتل الرجل، وتأكيدٌ لما رجّحه ابن تيمية ٣٤
• **الفائدة التاسعة**: معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ٣٦
• **الفائدة العاشرة**: الإمام حذيفة بن اليمان خبير الفتن والشرّ والجهالات رضي الله عنه ٣٩
• سبب آخر لتصنيف الكتاب ٤٠

الفصل الثاني:

طلبة التجهيل بين الجهل المركَّب والبسيط

• في معنى الجهل المركب والبسيط ٤٢
• غلمان صبيان بلحًى فيهم جاهلية ٤٦

• رسالة إلى طلبة العلم المباركين الغرباء من أهل السنة ٤٩
• ماذا قال لي الشيخ رسلان على طلبة العلم؟ ٥١
• الطعن في رجال أهل السنة بأي وجه من الوجوه اليوم، كالخيانة في ساحة المعركة وما يعقلها إلّا العالمون ٥٢
• فهرس الكتاب ٥٦

❊ ❊ ❊